قطار الحياة.. رواية بلا أبطال

المَشاهد

القطار

العربة الثالثة

العربة الثانية

العربة الأولى

القيادة

المحطات

أجهزة الرصد

القمر الصناعي

المحطة السرية

الخطة البديلة

السامري مخترع العجل !

أصوات النور

خلل مدمر

ميلاد الإنسانية

السوق الكبير

إعلان الحرب

القطار الجديد

المنتج البشري

حقيقة الميلاد

؟؟؟!

طريق الحرية

محطة الأصنام البشرية ؟

أين الطريق ؟

الرحيل

لحظات الميلاد

القطار

تبدأ محطته الأولى بالوجود في الحياة، ينطلق مسرعاً.. لا يعرف أحد إلى أين يتجـه، وفي أي طريق يسير. يمر في أثناء رحلته على محطات كثيرة متنوعة، لا يدري ركّـاب القطار لماذا يتوقف عندها.. فالقطار ومحطاته بالنسبة لأهل القطار، حتمية لازمة في هذا الوجود الكبير !.

يتكون القطار من ثلاث عربات، السمة المشتركة بينهم، أنه بلا نوافذ، تكسوه السـتائر السوداء؛ تحجب كل شيئ بالخارج..

القانون المشترك بين أهل القطار: أن من يحاول خَرق جـدران القطـار، أو إزالـة الستار.. فإن ذلك جريمة تستحق الإعدام، لأنه سيضر بأهل القطار، ويهدد حياتهم !.

والهدف المشترك بين أهل القطار: هو التطلع إلى العربة التي تليهم، يتطلع أهل العربة الثالثة أن يصلوا إلى مقدمتها، ويتطلع أهل المقدمة فيها، إلى اللحـوق بالعربـة الثانيـة. ويتطلع أهل آخر العربة الثانية أن يبلغوا أولها، ويتطلع أهل المقدمة فيها إلى العبور إلى العربة الأولى. ويتطلع أهل العربة الأولى أن يدركوا مقدمتها، ويتطلع أهل المقدمة فيها أن يصلوا إلى القيادة.

هذا " التطلع " هو القيمة والهدف الذي وجد أهل القطار أنفسهم مدفوعين إليه، منفقـين فيه غاية جهدهم وطاقتهم.. يحمي هذه القيمة ألية الحياة، وثباتها في القطار.. فلكل عربـة طريقة ثابتة وقيم محددة، لا يمكن ولا يستطيع أحد الخروج عنها !.

* * *

العربة الثالثة

بدت الحياة في العربة الثالثة، صعبة قاسية طويلة، تتزاحم أنفاسها، ويتصارع أفرادها، تمضي كئيبة شائهة.. أكل الجهل العقول، والتهم المرض الأجساد، ومزق الفقر النفـوس. تبدو على الناس بساطة تصاحبها البلاهة.

علمهم الجوع بلادة الإحساس، وحساب الحياة بعدد الوجبات، يستهلك العمل الشاق كل حياتهم، التي تتمثل في العمل والطعام والنوم، وبعض الجنس كضرورة جسدية.

أفراد تلك العربة ما بين ساخط على الحياة ولاعنها، وما بين قنوع راضي.. يؤمن أن القدر اختار له نصيبه، .. ولكن كلا الفريقين عندهم استعداد غريب للاسـتعباد، وقابليـة شديدة للاستذلال.

يثور الجياع منهم أحياناً، فتبعث القيادة ببعض فضلات الطعـام، لتصـمت بطـونهم الصارخة، فالقيادة تكره الأصوات العالية.

يعيش القنوع الراضي تلك الحياة، حتى يموت ويقذف خارج القطـار، أمـا أصـحاب التطلعات فلهم شأن آخر..

يتطلع شاب إلى حياة مثل التي يعيشها أبناء العربة الثانية، ويجد أنه صفراً من كل مـا يؤدي إليها، ومهما عمل واجتهد فلن يستطيع الخروج. وقانون القطار يحـتم عليـه دفـع ضريبة ضخمة جداً، تعلم القيادة أنه لن يستطيع دفعها إلا بالطرق غير المشروعة !.

يجد الشاب في نفسه قوة فوارة، تدفعه إلى الاعتداء على الضعفاء من أهل عربته..!!

تمر أيامه، وتمضي لياليه يجمع القروش الصغيرة ليدفع ضريبة الخروج.. كانت الأيام تمر كالدهور، يزداد طولها كلما ازداد الجوع والألم والخوف مـن المجهـول، وتمضـي

الليالي حزينة مظلمة باردة قاسية، حتى تصير قسوة القلب وغلاظة الإحساس، وأخـلاق الفقر، وعبودية المادة، والصراع على لقمة العيش.. هي مرآة حياته، ينظر مـن خلالهـا على دنياه.

وتمر الأيام تلو الأيام، والأسابيع وراء الأسابيع، والشـهور تكتمـل بهـا السـنوات، والسنوات تمضي بها العقود.. حتى يتجمع للشاب من السرقة، ضريبة الخروج من تلـك العربة البائسة، فيدفع الضريبة ويفتح له الحارس باب العربة الثانية ليراهـا لأول مـرة.. وهناك، يشعر نشوة الانتصار على الحياة !!

أما الفتاة المتطلعة، التي أخذتها نفس رغبة الشاب، ولم يكن لديها من القوة أو الحيلـة، ما تدفع به نفس ضريبة الشاب، فإنها تحلم بالحياة التي تشاهدها عبر تلفاز القطار.. تقـف أمام المرآة المكسورة المليئة بالبقع والثقوب، تتخيل نفسها بملابس جميلة، مثل التي تلبسها بنات العربة الثانية، تتحدث مثلهم، وتتصرف تقليداً لهم..

تسقط دمعة من عينيها، تصاحبها رغبة غادرة في التمرد، إنها مهما أمضت من الحياة فلن تحقق ما تحلم به وتتمناه.

وتقرر .. أن تبيع جسدها للحارس، على أن يسمح لها بالخروج من هذا العالم الكئيب.. عالم الفقر والحرمان.

و يتم البيع، وتخرج الفتاة من العربة الثالثة إلى الثانية، لتواجه الحياة التي تحلـم بهـا وتتمناها، بعدما فهمت أن جسدها هو السلعة التي تنفقها عندما تحتاج ؟!

* * *

العربة الثانية

فرضت طبيعة العربة الثانية، نوعاً آخر مـن الحيـاة.. ملـيء بالأحـداث، متنـوع التناقضات، مختلف الاتجاهات، غريب الأفراد.. أحياناً تبدو الحياة رتيبة ساكنة، تسير في حلقات مفرغة، وتارة تجدها مليئة بالحركة والنشاط..

أول الحلقات المفرغة هي " التعليم ".. يتوقف القطار مرات عديدة وأوقات مديدة عنـد محطاته التي تستهلك كثيراً من عمر الرحلة في هذا القطار، التي تبدو بلا نهاية. تحمـل محطة التعليم رهبة في النفوس.. تدفعهم إلى الصراع حوله للحصول على مكانة التفـوق فيه، ترجع أهمية التعليم وتنوعه في هذه العربة، إلى أنه جواز المـرور لخدمـة سـكان العربة الأولى، ثمة أمر غريب في تلك المحطة، يغفل عنها سكان هذه العربة، لأن الأمر صار مألوفاً لديهم: هو أن الأقسام العلمية منه هي وحدها التي تحظى بالتقدير والمكانـة، وعليها يشتد الصراع.. بينما الأقسام الإنسانية، التي من المفترض ـ من الناحية الفلسفية ـ أن تتخصص في شؤون القيادة، لا تلقى التقدير، ويدخلها الأغبياء.. أمر يثير الدهشـة، إلا أن الإلف والعادة يقتلان الإحساس.

ومثلما مضت حياة أبناء العربة الثالثة في العمل الشاق المرهق، كذلك تمضـي حيـاة أبناء العربة الثانية في المذاكرة المرهقة الشاقة الطويلة.. ولأن ألية الحياة، وثبات نظامها، سمة كل عربة؛ يدفع الأباء، الجيل السابق.. بالأبناء إلى نفس مصيرهم، لأن هـذه هـي قوانين العربة، وعلى الجميع الإمتثال لها !.

يعاني أبناء هذه العربة بعد سنوات التعليم الطويلة، من صعوبة العمل، لا في محطاتهم، ولا في محطات العربة الأولى.. إذ أن عددهم الضخم، شَكل أزمة خطيرة.. لكـن ثبـات قوانين القطار، أهم من أي أزمات مهما كانت.

تفرّخ عن هذه الأزمات، ثقافة جديدة للشباب، مفادها.. طالما أن الوضـع هكـذا، ولا يمكن الإعتراض عليه.. احتراماً لقوانين العربة، فيجب علينا التكيف عليه ! فتنشـأ عـن قناعة ورضى ثقافات وممارسات يطلقون عليها " ممارسات شبابية " وأحيانـاً " ظـروف واقعية " تباركها القيادة، وتدفعهم إليها.

للتقاليد الاجتماعية نصيبها في هذه العربة، لأن الآباء يعتبرونها ميراثاً مقدسـاً لهـم.. والتقاليد الاجتماعية في حس أهل هذه العربة تعني " الميراث القديم " الذي إذ لم تتمسك به لأنك من الجيل الجديد، فعليك احترامه وتقديسه.

فئة الشباب، هم غالبية الركاب فى هذه العربة، وهذا يعطيها الحيوية والنشاط والقوة.. وإن كانوا فقدوا أغلبها عند محطة التعليم..

يفكر الشباب في حل أزماتهم وفق قوانين القطار الثابتة، وعلى رأسها لا تغييـر فـي نمط الحياة لكل عربة. فتوصلون إلى حل مشكلة الزواج: بالزواج ـ الزنا ـ العرفي، أو العلاقات الجنسية غيرالكاملة لأصحاب " التقاليد الاجتماعية ". واتجهوا لحل مشكلة العمل: بالتخلي عن شهادتهم التعليمية، وممارسة الأعمال المهنية. ووجدوا حل مشـكلة السـكن: بالإيجار المؤقت الذي جعل استقرارهم كذلك مؤقتاً.

كانت هذه الحلول مناسبة للقنوعين الراضين بحالهم، لكن كان هناك من يحلم بالحياة في العربة الأولى أو حتى الخدمة فيها، بعد أن عجز التعليم عن تأهيله لهذا الهدف..فتحـول هذا العجز إلى رغبة جامحة في الإنتقام.. لقد قرروا أن يستغلوا قوتهم في خدمة " تجـار الأهواء " وهم موجودون في كل عربة، ويمثلون أحد قوانينها.. ويحبون العمل مع الشباب المتمرد،

يحمل تجار الأهواء بطاقات هوية تسمح لهم بالمرور في كل العربات دون قيد، لـذا فالعمل معهم فيه الأجر الكبير، والحظ الوفير.

العربة الأولى

حلم الجميع، غاية التطلعات، منتهى الأمال.. إليها تهفو النفوس، وتنعقد الهمم، إنها تبدو خالية من كل نقص أو عيب كان بالعربة الثالثة أو الثانية.. كل شيئ تتمناه تجده في هـذه العربة، فهي " القيمة الحياتية " التي تدفع سكان القطار إلى العمل والاتجاه إلى الأمـام.. لأنها هي أمامهم دائماً.

الهواء النقي.. الجو الجميل.. الطعام اللذيذ.. الوجوه الناعمة.. القرارات المصـيرية.. الحماية القوية.. الأموال الوفيرة.. السلطان القاضي، هي سمات هذه العربة،

إنها الحلم الذي يداعب خيال من من هـم خارجهـا، ويـدفعون حيـاتهم وأوقـاتهم، وجهدهم.. لينعموا بالكمال فيه.

إنها تبدو كالأزهار الجميلة، رسمها فنان ماهر بدقة بالغة.. براعة في تنسيق الألـوان، جمال في اختلاف الزهرات، تنوع في شذى الأزهار.. حتى قطرات النـدى لـم ينسـاها الفنان.

هكذا تبدو للناظرين خارجها، لكنها لا تبدو كذلك للمقيمين داخلها، نعم تبدو كالأزهـار الخلابة.. لكنها الأزهار الاصطناعية.. بلا جذور، بلا حياة..

هذه هي السمة الحقيقية التي لا يراها الناظرون المتطلعون خارجها، إنه الفراغ.. فراغ النفس.. فراغ الروح.. فراغ الحياة، إنهم يعيشون معادلة أضخم بكثير من تفكيرهم: إنهـم يملكون كل شيئ، إنهم لا يشعرون بالسعادة.

ولأن حياتهم كالأزهار الاصطناعية، تحولت سعادتهم إلى الصورة الاصطناعية.. مزيد من المتعة، مزيد من اللذة.. التي تأخذ النفس في عالم مصطنع من السعادة المزيفة.. مزيد من الإدمان على المخدرات، مزيد من الإقبال على الجنس، مزيد من جمع المال، مزيـد

من الاقتراب للقيادة.. حتى تظل العربة، هي القدوة والمثال، لا تفقد بريقها، ولا تنفد رغبة الناس فيها؛ فتنتهي " قيمة الحياة " عندهم.

التقاليد الاجتماعية لا تمثل تراثاً مقدساً لأهل هذه العربة.. إنهم من العربـة الأولـى، فليس لهم احترام لشيئ سوى ما يحقق رغبتهم في الإنطلاق والتحرر.. إنهم هـم الـذين يحكمون، فالمقدس عندهم هو ما يوافق أهوائهم.. لذا فهـم لا يستمسـكون بالتقاليـد، ولا يحترمونها.

كانت القيمة التي تعيشها هذه العربة ـ غير اللذة والمتعة ـ على التسلسل المعـروف في القطار، هي: التطلع إلى خدمة القيادة، أو القيادة ذاتها.

فتمضي حياتهم في اللذائذ والمتع وخدمة القيادة، أما الوصول إلى القيادة، فـأمر لـيس المطلوب فيه، مجرد جهد الطيبين أو تحايل المنحرفين، بل إنه يحمل مواصفات خاصـة جداً، تليق بمكانة القيادة.. قلة هي التي تدرك الشروط، وقلة هي التي تستطيع التنفيذ.

وبالرغم من أن السكان في العربة الأولى، يملكون كل متع الحياة، إلا إنهم لا يملكـون مخالفة " قوانين عربتهم " التي تفرضها القيادة.

* * *

القيادة

اسم تهتز له أركان القطار بمن فيه، إنها تختلف عن سمات كل العربات الثلاث، إنها تملك كل شيئ، وتُنفذ كل قرار.. تملك سير القطار، وتحديد سرعته، والمحطات التي يقف عندها، وتأمين القطار ومحطاته من أي أخطار، وهي التي تفرض القوانين التي تضمن سلامة القطار وسكانه.

يجهل أهل القطار طبيعة القيادة، وأهدافها.. ولا يشغلون أنفسهم بذلك، لأن القيادة أياً كانت، سوف تقود القطار، فهم جميعاً مستسلمون لها، ولا يستطيعون العبور إليها !.

تملك القيادة جميع الأجهزة التي من خلالها تحكم قبضتها على القطار، فلها جهاز للأمن، وآخر للاستخبارات، وثالث لإصدار القوانين وتنفيذها، ورابع للإعلام.

وتستخدم القيادة فئة من كل عربة، يتم اختيارها بعناية، وفق شروط محددة، لتنفيذ كافة قراراتها تجاه القطار، وكذلك تحديد كافة سمات الحياة فيه.

صعوبة الحديث عن القيادة، يكمن في أنها غير ظاهرة للجميع، ولا يدخلها إلا الفئة المختارة؛ التي تقطع العهد على نفسها بعدم الحديث أو الإفصاح عن أي شيئ يحدث داخل غرفة القيادة، وإلا اعتبر هذا خيانة لركاب القطار كافة !.

إنها لا تظهر إلا في حالة صدور قانون أو سياسة جديدة أو في أحد المناسبات العامة.

ولأنها خافية على الغالبية، فإنها تحمل في نفوسهم كثير من الخوف والرهبة.. وكذلك القداسة تجاهها.

والاستسلام للقيادة، هو القانون الوحيد الذي يتم تنفيذه، دون إصدار أو توجيه.. لأن القيادة بالفعل داخل العربة الرئيسية التي من خلالها تتحكم في كل شيئ في القطار.

والسؤال الذي يطرح نفسه ـ بحكم التسلسل المعروف في القطار ـ : هل هناك شيئ وراء القيادة.. تخدمه أو تتطلع إليه ؟ أم أنها منتهى الغايات ؟

هذا ما لم يتبين بعد.. !!

* * *

المحطات

يتوقف القطار في أثنار رحلته المبهمة الهدف، المجهولة القيادة، في محطـات عديـدة تختارها القيادة، وتُحدد مدى توقيت الوقوف عندها..

عند سكان العربة الثالثة: يتوقف القطار في محطات العمل الشاق المرهق، وكذلك عند محطات صيانة القطار، وتزويده بالوقود النفطي ليسير، وبالوقود البشري ليستمر، فعلـى قلة مكانتهم بين ركاب القطار، إلا أن لهم تلك الأهمية التي تجعل القطار يستمر في البقاء والسير !.

عند سكان العربة الثانية: يتوقف عند محطات التعليم بكافة مراحلـه، يليهـا محطـات الزواج بكل صعوباتها، يليها محطة الأولاد ورعايتهم بعظيم مسؤوليتها. ثم يحـدد القـدر المحطة الأخيرة.. فيموت أحد سكان القطار، وهو لم يدر بعد، إلى أين يتجه القطار ؟!

في العربة الأولى: يتوقف القطار عند محطات اللذة والمتعة..

المحطة الأولى: المسكرات، يليها الجنس، يليها المال، يليها السطوة، يليها حب البروز والزعامة.

ولأن القطار ذو جدران سميكة، تغطيها الستار السوداء.. كانت المحطات التي يتوقـف عندها القطار كافة، لا بد أن تحمل نفس المواصفات..

ترتفع صفارة القطار، لتعلن الاستعداد لدخول المحطات، والاستعداد لفـتح الأبـواب.. المحظور فتحها إلا في المحطات التي يقف فيها القطار، بإذن القيادة.

يستعد الحراس الواقفون على كل باب، لينظموا حركة المرور والسير، وألا يحاول أحد العبث بأبواب القطار، قبل دخوله المحطات.

تُفتح أبواب القطار أتوماتيكياً من خلال أزرار في غرفة القيادة، وينزل سكان القطـار، كلٌ في المحطة التي تخصه. تغطي المحطات سقوف دائرية، تحمل نفـس لـون سـتائر القطار.. يتدلى منها مصابيح قوية تضئ المكان، وتبعث جواً من الغموض !

لا يبدو أي منفذ داخل المحطات، إلا القضبان التي يسير عليها القطار، والتي تبدو بلا نهاية. والبوابات الإلكترونية المخصصة لركاب كل عربة.

ينطلق في ألية، ركاب كل عربة إلى البوابات التي تخص كل فريـق مـنهم.. تُغلـق البوابات بعد دخولهم أو خروجهم من المحطات. ثم يعودون بعد انتهاء اليوم إلى القطـار، لاستكمال الرحلة..

الرحلة إلى المجهول.. !!

يحيط بالمحطات وعند البوابات، جنود كثيرون، تابعون للقيادة مدججين بكـل أنـواع الأسلحة، لمنع أي متسلل أو فضولي يحاول العبث بجدران المحطـات، أو يحـاول فـتح البوابات في غير أوقاتها..

و يحيط بجدران المحطات الدائرية، أنواع من الأسلاك الشائكة، التي تُزيد من وسـائل الأمان لشعب القطار..

كان هناك أناس يلبسون أزياء غير عسكرية، يحومون حـول المحطـات والبوابـات لمتابعة الأحوال، والاستقصاء عن أي دخيل أو غريب.

هذه هي الحياة في القطار.. وتلك هي محطاته.. وأولئك هم ركابه..

فهل ـ يا تُرى ـ استمرت الحياة على هذا الحال، أم تغيرت ؟

* * *

أجهزة الرصد

من المفترض حسب قوانين القطار، أن تسير الحياة وفق تلك القـوانين.. وأن يجتهـد ركّاب القطار، ويبذل كل طاقاته وحيله، في أن تستمر آلية هذه الحياة. وأن من "الأمانة!!" و"الإخلاص !! " و" الوفاء !! " !!، أن تبقى الحياة هكذا، حتى انتهاء الرحلة..

ولكن الحياة دائمة التغير، هذه هي طبيعتها.. والذي يحكمها ويملكها، هو مـن يمسـك بزمامها عند لحظات الولادة الجديدة، ويعرف مفاتيحها، حتى يسـتطيع قيادتهـا.. كانـت القيادة المجهولة ـ في كل مرة ـ تدرك لحظات المخاض فتسرع لتتحكم فيها !.

يسرع القطار في سيره.. تنطلق صفارته لدخول المحطات، ثم تنطلق ثانية للاسـتعداد للمحطات التالية، ثم يسير مرة ثانية.. وتمضي الحياة..

بدأت المشكلات في البروز على السطح، بعد أن تعمقت جذورها في النفوس.. تحركت مؤشرات أجهزة الرصد، التي تضعها القيادة داخل كل عربة، لتعلن عن وجود اضطراب ما في العربات.

أعلن مؤشر العربة الثالثة.. عن إنزعاج الركّاب، وضيق الحياة بهم، من كثرة العمـل، وقلة الدخل.. انتبه الفريق التابع للقيادة إلى دلالات هذا المؤشر، وتحدثوا فيما بينهم: " إنه لا مفر لهؤلاء الرعاع من العمل الشاق.. إنهم الوقود البشري لنا، لكن إنزعاجهم لا بد أن يأخذ بجدية.. اقترح أحد أعضاء الفريق ـ والذي عرف فيما بعد أنه تلقى دورات خارجية ـ أن تزيد مساحة المتعة والترفيه لديهم، حتى تسحب وتمتص المخرون الثوري عندهم.. وبالفعل، تم إمداد وصلات إلكترونية إلى العربة الثالثة، لتصل تلفـاز القطـار بالأقمـار الصناعية، التي تعرض الكثير من الأشياء الممتعة، التي تأخذ القلوب، وتحيـر العقـول، وتُخدر النفوس.

أما مؤشر العربة الثانية: فقد انحرف بشدة ليعلن عن وجود العديد من المشكلات، رأت القيادة تخصيص أكثر من فريق لتولي مهامها.. فالعدد الضخم في هذه العربة، يتسبب في صعوبات مختلفة.. وجد الفريق أن الحل الجذري لتلك المشكلات، سيكلف القيـادة مـا لا تطيق، وسيفقدها الكثير.. فجاء الأمر من القيادة باتباع الخطة البديلة.. " الحلول التجميلية"!

فبالنسبة للتعليم: تم إضافة مواد عصرية جديدة، لإخفاء الوجه القبيح للتعليم، مع الحفاظ على الهدف الرئيسي منه !.

وبالنسبة للبطالة: الإعلان الدائم المتكرر عن فرص العمل الكثيرة، لإمتصاص الغضب الشعبي.

وأمّا الزواج:فقد تم تسهيل عمل "تجارالمتعة " وجعل ـ عبر وسائل الإعلام ـ التأخر في سن الزواج هو القاعدة، والطريق القويم.

انحرف مؤشر العربة الأولى: ليعلن عن مشكلة خطيرة، تلقتها القيادة بكل حذر.. إنه " الفراغ الروحي " بين بعض طبقات تلك العربة، ومن المعروف قرب العربة الأولى مـن القيادة، وحساسية أهميتها، فهي تملك " الثروة والقوة " ومشكلة من هذا النوع ليست هينة، وظهور المشكلات في تلك العربة بالذات، يحمل غرابة بين فريق القيادة..

لذا كان لا بد من الاستعانة بالخبرات الأجنبية..

جاءت التوجيهات الخارجية كالآتي: " أصحاب الفراغ الروحي، لا يملكون شيئاً مقدساً في حياتهم، وهذا الذي يشعرهم بالفراغ.. لذا كان لزاماً عليكم أن ترجعـوا إلـى الـدين المورث عن آبائهم.. وتحددوا " روحانيته " ثم تعرضوها لهم بأسلوب رشيق سـهل لـين جميل، عبر رجال محترفين في التأثير النفسي والخداع البصري، وذلك عبـر منظمـات

متخصصة.. تنفرد بهذه المهمة، ونحذركم ألا تزيد الجرعة المطلوبـة.. فينقلـب الأمـر عليكم.

تم تنفيذ تلك التوجيهات بعناية بالغة، حتى لا تحدث مضاعفات.

* * *

القمر الصناعي

يسرع القطار مرات أخرى في سيره هو وما يحملـه .. تنطلـق صـفارته لـدخول المحطات، ثم تنطلق ثانية للاستعداد للمحطات التالية.. ثم تعود الكرة من جديد.. وتمضي الحياة..

تمضي الحياة.. بلا دليل.. بلا هدف.. بلا غاية !.

انتهى التأثير الوقتي للحلول السطحية، التي كانت معروضة للمشكلات العميقة.. وبـدأ شعب القطار ينتقد ذاته ويجلدها، عقاباً لها على هذه الحالة السيئة..

احتار الناس في أمورهم، من المسؤول.. نحن أم القيادة ؟ من المجرم.. نحن أم القيادة ؟ كيف نرتقي ؟ كيف نجد حلولاً لمشكلاتنا ؟

ولكن فى زحمة المشكلات والبحث عن حلول.. غاب عن ذهن الجميع هـذا السـؤال البديهي: في أي طريق نسير ؟ إلى أين تتجه تلك الرحلة ؟

لقد اعتبروا هذا أمراً مسلماً به، لا فكاك منه، ولا مفر !

انفجرت المشكلات من كل جانب، وغدت الحياة كابوساً كئيباً، يخفي وجههـا القبـيح عمليات التجميل المستمرة لتلك العجوز الشائهة..

احتارت القيادة في موقفها من المشكلات، واختلف النـاس فـي أمرالقيـادة، التـي لا يعرفون عنها شيئاً.. لا يعرفون سوى أنهم وجدوا أنفسهم، في قطار محددة قيادتـه، دون سابق علم لهم بها !.

اضطربت أوضاع القطار والمحطات كلها بشدة، وصار الأمر ينذر بكارثة، إن لم يكن هو في ذاته كارثة..

رصد قمر صناعي عالمي، تابع للجنة العالمية للقطارات، أوضاع هذا القطـار.. وأن الناس على وشك الإنفجار، مما قد يؤدي إلى تهتك جدران القطار، الأمـر الـذي يمثـل خطورة بالغة علىالجميع.

لم يكن أحد يعلم بأمر هذا القمر الصناعي، ولا باللجنة العالمية وعلاقتها بحركة سـير القطار من أساسها، لم يظن ركّاب القطار أن يكون هناك من ينشغل به !!

كانت القيادة تعلم حساسية هذا الموقف، وما قد يترتب عليه من أوضاع جديدة، علـى خلفية المشكلات المتفجرة.

* * *

المحطة السرية

في أحد المحطات، ذات الحماية القوية، والحراسات المشددة، والأهميـة القصـوى.. توقف القطار دون أن ينزل أحد منه سوى القيادة.. !

أغلقت جميع الأبواب الإلكترونية بإحكام، وانتشر الحرس من كـل نـوع، فـي كـل مكان..!!

اجتمع أفراد القيادة، مع فريق اللجنة العالمية، لبحث الأوضاع المتدهورة..

لم تكن الناس تعرف حقيقة ما يدور سوى أنها زيارات عابرة بين قادة كل قطار !.

بلهجة صارمة تحدث رئيس اللجنة قائلاً: " كيف تركتم الأوضاع تصل إلى هذا الحـد؟ هل تعرفون مدى خطورة ذلك ؟ إنكم تهددون حياتكم، وحياة الآخرين ".

أعلنت القيادة فشلها في الإمساك بزمام الأمور، وأن تفجـر الأوضـاع كـان حتميـة اجتماعية بين ركّاب القطار.

فكرت اللجنة العالمية في تغيير قيادة القطار، إلا أنها تراجعت لحـين وجـود البـديل المناسب، في ظل تلك الظروف الصعبة.

انتهى الاجتماع بتكوين " فريق سري " من أصحاب الكفـاءات العاليـة والمهـارات الخاصة، لدخول القطار في مهمة استخباراتية؛ يحددون من خلالها خطة العمل التي يمكن أن تحتوي تلك الأزمات.. على أن تبذل أجهزة الأمن بالقطار كافة التسهيلات والتحركات.

بدأ الفريق السري بالتنقيب عن كل صغيرة وكبيرة في حياة الناس، في كـل عربـة، بدرجة تثير الدهشة.. إنهم يسألون عن أشياء تبدو غريبة جداً، لا يعلم أحد إلى أي شـيئ تقودهم..

بعد انتهاء المهمة، رحل الفريق عن القطار دون علم أحد مـن ركّابـه ، بقدومـه أو رحيله!!.

رفع الفريق إلى القيادة العليا، التقرير التالي:

" الوضع يحمل خطورة من الدرجة الثانية.. زادت الجرعة الروحية في العربة الأولى إلى الحد الغير مسموح به، ونوصي: بمزيد من تحوير تلك الجرعة عن مجرها الطبيعي..

أما مشكلات العربة الثانية، فلا سبيل لحلها، إلا أن المشكلة الحقيقية تكمن في أن الناس يعلو صوتها، وتتهجم على القيادة، لأنها سبب تلك المشكلات، نوصـي: بإنشـاء محطـة جديدة يتناولون فلسفياً فيها مشكلاتهم، ونُوكل إليهم حلولها، لكنهم لن يصلوا إلى شيئ بحكم " العقلية التعليمية " الجدلية النظرية لديهم.

أما في العربة الثالثة، فإن انفتاح الناس فيها ـ عبر الوصلات الإلكترونيـة ـ علـى غيرهم، جعل منهم وحوش صغيرة تريد الخروج من القمقم.. نوصي: بمزيد من المتعـة، والأشياء الترفيهية الحقيقية البديلة عن شاشات التلفاز، لأنه ليس لهـم مكـان فـي بـاقي العربات ".

* * *

الخطة البديلة

صدرت الأوامر من اللجنة العليا إلى قيادة القطار:

بإقامة محطات جديدة للعربة الأولى، تحتوي على كل المتع الموجودة.. وكـل وسـيلة ترفيه جديدة، وكل لذة موجودة، مع تعديل الجرعة الروحية حتى لا تأخذ مساراً خاطئاً قد يؤدي إلى كارثة.. وتخصيص محطات لهم، يقودها أفـراد سـوف نرسـل لكـم قائمـة بأسمائهم.. وسوف نقوم نحن بكافة عمليات التمويل المالي، والإشراف الفكري عليها.

وبإقامة محطة للعربة الثانية، يكون الغرض منها البحث في مشـكلات تلـك العربـة، وتوكيل بعض أفراد من العربة الأولى ـ ممن لا يعانون من تلك المشكلات ! ـ الحديث عن تلك المشكلات، لحين انتهاء الرحلة !!.

وإنشاء مراكز ترفيهية لتخفيف قسوة الحياة في العربةالثالثة.

تم تنفيذ كافة الأوامر بحرفية شديدة ..!!

لقد تبين أن لقيادة القطار، قيادة أخرى تتبع لها، لكن الناس لا ترى القيادة ولا تعرفها، فضلاً عن أن تعرف القيادة العليا التي تليها !.

تُرى لماذا تتبع قيادة القطار، قيادة أخرى تقود قطارات أخرى ؟

أمر ستجيب عنه الستائر السوداء !!!

كانت خطة الفريق مدروسة بعناية بالغة، وآتت ثمارها..

أخذ البريق اللامع، والمناظر الجذابة، والمباني الجميلة.. قلوب وعقول ونفوس أبنـاء العربة الأولى؛ حين شاهدوا ما أقيم لهم.. أما محطات التفريغ الروحي، فكانت على أعلى

مستوى تقني، وبها كافة المؤثرات النفسية والسمعية والبصرية.. لمداعبة عواطف أبنـاء العربة الأولى الذين يأخذهم الحنين إلى تراثهم القديم.

بينما كانت الفئة المختارة لمناقشة مشكلات العربة الثانية، في سعادة الأطفال وفرحتهم، وهم يزاولون نموذج طفولي من القيادة، في مجلس ! أُعد لبحـث مشـكلاتهم، وتحمـل مسؤوليتها بدلاً عن القيادة !.. كان أهل هذه العربة ينتظرون الأمل الجديد والحلم البعيـد في حلول لمشكلاتهم !.

أما أهل العربة الثالثة، فكان الأمر مضحكاً.. أن يستخدموا الأدوات الترفيهية وبعـض الأشياء التكنولوجية، ومازال الجهل جاسم على عقولهم، والتخلف يتساقط من وجـوههم، والمرض يأكل أبدانهم، والفقر يدمر حياتهم !.

وفي تلك الأثناء لا يتوقف القطار لحظة عن السير.. دوماً تنطلق صفارته، وتتسـارع عجلاته، وتتنوع محطاته، وتمضي حياته.

* * *

السامري مخترع العجل !

مرت الأيام ورحلت السنوات، والناس يلهيهم الأمل القريب، والأماني الحالمة.. وتبـين لهم بعد ما سقط في أيديهم قائد القطار صريعاً، ورأوا أنه لا يكلمهم، ولا يهديهم سبيلا..

أنه لا حلول لمشكلاتهم، ولا أمل لهم في الحياة التي يأملونهـا.. والتـي فشـلوا فـي تخيلها!!

إنهم يجدون في نفوسهم شيئاً ما يدفعهم إلى البحث عن الحياة.. لا يعرفون ما هو ! ولا يعرفون ما هي الحياة التي يريدون !!!

انتشر الحزن، وعم الكرب كافة أنحاء القطار على موت القائد العظيم، صاحب الحكمة والرشاد.. وأذاعت وكالات أنباء القطار والعالمية خبرالوفاة.. الذي نزل كالصاعقة علـى ركّاب القطار، فالآمال والأحلام والأوامر كانت بيد القائد.. فمن ذا الـذي سـيحل لهـم مشكلاتهم ؟ ويجعلهم يشعرون بالسعادة الداخلية، التي لم يعرفوا مذاقها بعد ؟!

صرّح أحد المسؤولين لوكالات الأنباء، طلب الإفصاح عن اسـمه وهـو " السـامري مخترع العجل " أن القيادة و ركّاب القطار، لحزينة أشد الحزن على رحيل القائد، ونحـب أن نطمئن الجميع.. أننا أقوياء، ومدركون لمسؤوليات القيادة، وأن القطار سيتحرك مـن جديد، وفق قيادة جديدة، وفكر جديد، ومستقبل مشرق، ونعدكم بكـل الوعـود الحسـنة، والإصلاحات الجديدة..

وفي انتظار قرار لجنة القطارات العليا، لإرسال قائمة بالقادة الجدد.. !!

وفي خضم الأحداث، وألية الحياة، لم ينتبه أحد إلى مدى خطورة تلك التصريحات !!.

ثم مضت الحياة كعادتها.. مضت الحياة بالقيادة الجديدة، والطمع في المزيد يملأ قلوب الجميع.. تحولت المشكلات المصيرية ـ في كل العربة ـ إلى " سلعة وتجارة " يتاجر بها الموكلون بإيجاد الحلول لها.. وفهمت العامة تلك اللعبة، وراحوا يتسارعون ويتفنون في كيفية الربح من وراء هذه التجارة..

فقد كان هؤلاء " التجار " يحصلون على امتيازات كثيرة من أموال، ومكانة، وقرب من القيادة.. طالما أنهم على تجارتهم هذه، وعلى خطى المنسق العام نائب القيادة.. " السامري مخترع العجل "..

انطفأ الأمل في القلوب، ولم تعد الأماني والكلمات تسحر العقول.. فانتشرت الأمراض النفسية..

وصار كل فرد عالم مستقل بذاته، يبحث مشكلاته هو، ويعيش لنفسه هو، ويكافح لنفسه هو، ونسي الجميع أنهم في قطار واحد، وعلى طريق واحد.. فلم يعرف أحد حلاً لمكشلاته، ولم يجد نفسه التي يريد العيش لها، وضاع الكفاح لنفسه.. فالحياة تتعقد، والقطار لا يتوقف، والآلام لا تنتهي.. وتمضي الحياة.

* * *

أصـوات النـور

وفي عذاب الحيرة، وشقاء النفس.. وفي كثافة الظلام واضـطراب الحيـاة.. همسـت أصوات حانية بين الناس كافة ـ دون تمييز بين عربات ـ بأشياء جديدة غريبـة علـى أسماع الناس..

فالناس في القطار لا تعرف إلا الحديث عن المتاع، أو المشكلات، أو العمل الشـاق.. فهذا الذي يأكل حياة الناس، ويلتهم أوقاتهم وأعمارهم وطاقاتهم..!!

همست الأصوات الحانية، بحقيقة النور، بالحرية التي تحقق إنسانية الإنسان، بكرامته، بالأمانة التي يحملها، بمركز وجوده، بحقيقة خالقه ونفسه، وحقيقة كونه وحياته..

{ نور ـ حرية ـ كرامة ـ أمانة ـ مركز وجود !! } مصطلحات لا وجود لها فـي حياة شعب القطار.. إنها لا تمت بحياتهم داخل القطار بصلة..

ما أهمية تلك المصطلحات ؟ ومن أين جاء بها هؤلاء ؟ ومن أين جاءوا ؟

أوليس لهم متاع يتلاذذون به، أو مشكلة يلتفتون إليها، أو عمل يشغلهم ؟!

لم يكن للكلمات وقعها في النفوس، لقد لمست أوتاراً ميتة فيها، مازال الطين يغشاها..

لم تكن الكلمات لتعطي مدلولاتها، إلا للقلب المنفتح لها، والعقـل الـذي يستشـرفها، ويتقبلها.

" إنكم مستعبدون للقيادة، إنكم مستذلون بنمط حياتكم، إنكم مساجين في هذا القطار.. إن محطاتكم خسارة، ونهايتكم أليمة.. إنكم أشقياء بتلك الحياة..

هناك نور لم تره قلوبكم، وهناك أمانة لم تدركوا أهميتها، وهناك حريـة لـم تعرفـوا مذاقها بعد.. هناك حيث يوجد الإنسان، سيد هذا الكون ـ وليس عبد القطار ـ الإنسـان

الذي يعرف أن إنسانيته هو أن يخضع لخالقه، وأن سعادته أن يعيش " نمط الحياة " الـذي أعده له بارئه..

إن هناك نور وطمأنينة.. إن هناك سعادة وسكينة ورحمة.. إنه طريق يعاكس الطريق الذي تسيرون فيه، عليكم بتكاليف الحرية.. عليكم بالطريق الذي يكون فيه الإنسان إنساناً".

كانت هذه رسالة أصحاب شعلة النور..

أبدى الناس عجباً ودهشة من تلك الكلمات، من قال هذه الكلمات ؟ إننا لم ندرسها مـن قبل، ولم نسمع بها في محطاتنا الثقافية أو الإعلامية، كما أنهـا لا توصـل إلـى حلـول لمشكلاتنا؟!

ماذا تعني ؟

هل تعني إنقلاباً في حياتنا ؟!

هذا أمر ليس بأيدينا، إنما هو بيد القيادة..

هل تعني إضافة علوم جديدة ؟

نظن أن مكتباتنا مليئة بالكتب والأبحاث والدارسات..

من أين جاءوا بهذه الكلمات ؟ هل هي من الثرات القديم ؟

إن هناك فئة مختارة قائمة على أمر التراث، ولم نسمع منهم أي من تلك الكلمـات أو المصطلحات..!!

علت الأصوات الحانية الداعية إلى النور، من سفاهة شعب القطار، وأدركت بالتجربة، كثافة الظلام، وعمق الركام، وتآكل العقول، وتخلخل النفوس.. الذي تسبب فيـه المتـاع والمشكلات والعمل الشاق.. والرحلة بالقيادة المجهولة إلى طريق لا يعرفه أحد !!

فتوجه أصحاب شعلة النور، برسالة أكثر وضوحاً:

" أيها الناس: عليكم بالتوقف عن نمط الحياة في هذا القطار، أو النزول في محطاتـه.. عليكم بالبحث في أمر هذا القطار، وقيادته.. استيقظوا إنكم ميتون ".

هذه المرة توقف التعجب، وظهر الاستنكار، والرفض لهذه الرسالة.. التـي اعتبرهـا الكثيرون ضرباً من الجنون..

من يستطيع أن يغير نمط حياته وهو في القطار، من يستطيع أن يمتنع عن النزول في محطاته، من يستطيع أن يحاسب القيادة أو يسال عن نهاية هذا الطريق ؟!!!

اعتبر الناس أن أصحاب هذه الرسالة، يعانون من خلل ما في حياتهم، دفعهم إلى هـذا الهبل.. فربما يكون الترف سبباً في هذا، أو يكون هروباً من كثرة المشـكلات أو العمـل الشاق !!!.

لقد ألفت نفوس الناس الظلام ! واستمسكت به ! وتكيفت عليه ! وأقامت مصالحها معه! واستسلمت للقطار ولمحطاته !

ولا تجد أي سبب في دفع تكاليف أشياء لا تعرفها ولا تريدها.. إنهم يـؤدون واجـبهم كاملاً.. فهم يعملون، وبعضهم يحترم تراثه القديم، ويحاولون فعل بعض الطيبات، وهناك عاطفة غامضة هلامية في قلوبهم تقول لهم: إنهم مؤمنون !

فلا داعي للاستجابة إلى هؤلاء.. ربما كانوا غرباء، أو تسللوا إلى القطار فـي أحـد المحطات !!

وفي النهاية، انصرف الناس عنهم، فلكل واحد منهم شأن يغنيه، وعمل يلهيه، ومشـكلة تُخزيه.

اقترب دبيب اليأس من قلوب الأصوات الحانية الداعية إلى النور، بعد هذا الإعراض، والإستهزاء، والسخرية من ركّاب القطار، وأقعد الحزن همتهم.. فتواروا عن أعين الناس، وابتلعهم الظلام الكئيب، والركام العميق، والتيه البعيد.. رغم أنهم يحملون شعلة النـور، التي لم تبصرها القلوب المظلمة !.

* * *

خـلل مدمر

أحدثت شعلة النور التي تحملها القلوب الصادقة، خللاً كبيراً في نظام القطار، وبنيتـه وتركيبه..

إن القطار مصمم بدقة متناهية، لأي محاولة تغيير دون ترتيب مع القيادة، فالجـدران السميكة، والستائر السوداء، والحراسات المشددة، في القطار والمحطات وعند البوابـات الإلكترونية.. والاستخبارات التي تتحسس أي دخيل أو تغيير يحدث للقطار، فضلاً عـن الأقمار الصناعية التي تتابع حركة سير القطار ومحطاته واتجاهاته.. والأوامر المتتاليـة الصادرة من لجنة القطارات العليا..

كل ذلك يحول دون أي تغيير في القطار ومكوناته، أياً كان هذا التغيير.. ووجود عـدة أشخاص أو شخص واحد، يحمل " شعلة النور " فإن هذا ـ ببساطة ـ يعني تحدياً وحرباً على كل هذه الأجهزة.

ولأن تلك الأجهزة تعمل بكفاءة عالية، ودقة متناهية، وتنظيم بارع.. فإنها دائمـاً مـا تكون مطمئنة لاستقرار الأوضاع..

ثم كانت الكارثة..

رصدت أجهزة الاستشعار بالقطار، والاستخبارات.. مصدراً ينبعث منه النور !!!

فانطلقت أجهزة الإنذار المبكر، لتعلن حالة الطوارئ القصوى، وأن القطار معرض إلى كارثة كبرى..

اجتمعت كافة الأجهزة المختلفة، لاكتشاف حقيقة هذا الخلل.. وتساءلوا:

هل حدث خلل في أجهزة القطار ؟

هل حدث تهتك في جدران القطار وستائره ؟

كيف انبعث هذا النور، ومن الذي يحمله ؟

.. دافع كل فريق عن كفاءة أجهزته ودقتها.. فالأجهزة كلها تعمل، والجدران سـليمة، والستائر لم يتغير لونها..

بقي تساؤل واحد: من أين انبعث هذا النور ؟!

تمت كل هذه الاجتماعات في غفلة من ركّاب القطار، فهذه أمور لا يلقون لها بالاً، كما لا يحق لهم المشاركة فيها، ولو بمجرد المتابعة..!!

ولأن الأمر خطير، تم رفع الحالة إلى لجنة القطارات العليا للنظر في هذا الأمر..

وفي أحد المحطات السرية، تم تسليم قرص إلكتروني عليه تفاصيل القضية.

استلم القرص الإلكتروني فريق عمل، يحمل كافة الاختصاصات، وبعد عدة أشهر مـن البحث والدراسة، تم رفع هذا التقرير إلى اللجنة العليا:

" الوضع يحمل خطورة من الدرجة الأولى.. القطار سليم من الناحية الفنيـة.. القمـر الصناعي المكلف بمتابعة القطار لم يرصد النور ! ويجب استدراك هذا الأمر.. اسـتمرار هذا النور سيدمر القطار.. انتشار هذا النور خارج القطار، يهدد كافة القطارات الأخرى، وكل مصالح اللجنة العليا..

ربما يكون مصدر هذا النور، انبعاثاً ذاتياً !! لا ندري من أين انبعث، ولا كيف انبعث؟

إنه مثل البرق أو الزلازل أو البراكين.. يحدث دون سابق إنذار..

الحل الأمثل لتلك الحالة: " القضاء التام على مصدر الإنبعاث ".

رفعت نتيجة التقرير إلى قيادة القطار.. وفيه الأمـر بالقضـاء التـام علـى مصـدر الإنبعاث.. من أجل حماية الجميع، والحفاظ على المصالح.

وكان الأمر عجباً..

بينما اللجنة العليا، وقيادة القطار، وأجهزة الأمن، وفرق البحث تبحث عن ذاك النور.. كان ركّاب القطار في استهزاء بمن يحملونه، وفي سخرية من قولهم ودعوتهم.. وحاولوا إجهاضهم بنفورهم وإعراضهم.

استنفرت القيادة كافة الأجهزة الأمنية للقبض على هؤلاء، وتقديمهم إلى العدالة.. وبعد فترة من البحث، تم القبض عليهم متفرقين بين العربات، بعدما أذاعت النـاس: أن هنـاك أشخاص غير طبيعيين، يتكلمون بحديث غير معقول.. فكان هذا دليلاً على أنهم الهـدف المطلوب.

* * *

ميـلاد الإنسانية

معصوبو الأعين، مكبلو الأيدي، تتقاطر الدماء من أجسادهم وهم داخل قفص صـغير، هذه كانت حالتهم في إحدى المحطات المجهولة عالية الحماية، غامضة المظهر، تحرسها جيوش من إنسان ألي.. يحمل صفات البشر شكلاً، وخصائص الألة مضموناً..

وفي داخل غرفة كئيبة بلا منفذ للهواء، وبلا مكان للجلوس.. خاوية من كل شيئ سوى مكتب المحقق الذي سيباشر هذه القضية، بدأ التحقيق مع المتهمـين كـل علـى حـده.. يخوفونهم ويعذبونهم تارة، ويرهبونهم ويمنونهم تارة أخرى، وهم ثـابتون مستمسـكون " بشعلة النور"..!

وبدأ اختبار الإنسانية: حاول أصحاب القلوب الصادقة، أن يستجمعوا كل قواهم العقلية والروحية.. حتى يستوعبوا مدى انحطاط هؤلاء المحققين، وتجردهم من كل خصـائص الإنسان.. كانت أرواحهم لا يمكن أن تتخيل أن هناك أحـداً مـن البشـر مثـل أولئـك المجرمين..!

وتساءلوا ـ بالرغم من معاناتهم ـ : كيف نبتت هذه البذور السامة بين الناس، ومـن الذي غذاها حتى وصلت إلى هذه الوحشية ؟!

انهالت الأسئلة والاتهامات عليهم، مع تعمد إهانتهم واستفزازهم واستحقارهم وسبهم.. كانوا يحاولون كسرهم من كل الجوانب، لكنهم كانوا يحملون عقيدة قوتها في ذاتها!.

كانت هذه الدعوة في عرف قوانين القطار، جريمة تستحق الإعدام.. توالت التحقيقـات عدة شهور، ولم يعرفوا.. كيف انبعث هذا النور.. ؟!!

ثمة أمر غريب.. كل هذه الأجهزة والكفاءات فشلت في تحديد كيفية انطلاق النور.

ثم جاءت الأحكام القضائية ـ والتي تمت أيضاً في غفلة وبلاهة من ركّاب القطـار ـ بسجن فريق منهم إلى أجل غير مسمى، وبإعدام فريق آخر.. اعتبروه أكثر خطورة.

وانطلق القطار في سيره، بحركته المسرعة إلى سوق المتعة وسوق المشكلات، وسوق العمل المرهق.. وفي الطريق ألقى بالقلوب الصادقة في زنزانات تحت الأرض.. تحـت مستوى الآدمية بكثير، بها كل ما تفنن فيه العقل البشري من وسـائل للتعـذيب وسـحق للإنسانية..

وبدأت الإنسانية:

وحيث القلوب الصادقة، مجردة من كل شيئ إلا من الشعلة التي في قلوبهم.. اسـتلمهم زبانية السجون ليفتكوا بأجسادهم.. وتحت تعذيب هذا الجسد، بدأت الـروح تشـرق مـن جديد.. وتَشع نورها في كيانهم، حتى بدا صافياً رقيقاً شفافاً.. لقد أذاب التعذيب أجسادهم، فسقط عن النفس الغشاء الكثيف.. فبدت الروح مبتسمة، مشرقة، مطمئنة، هادئـة.. لقـد أزدادت الشعلة توهجاً ونوراً في قلوبهم.. لقد عادوا يتذوقون الحياة بمـذاق لا يعرفـه إلا أمثالهم !!

وفي ظلام السجون الكئيب، وفي وحشة الليل البارد الطويل.. كانت أرواحهم تسـمو، وتسو.. بعيداً.. بعيداً جداً.. إنها تقترب من الجنة، وتشم ريحها، وتستشعرها.. بل تكـاد تلمسها..

إنهم يشعرون براحة في داخلهم، لا يعرفون كيف جـاءتهم.. ولا يعرفـون كـذلك أن يصفوا مذاقها وحلاوتها..

وأخيراً.. وبعد طول اشتياق، وعذاب انتظار، تحقق النصر لتلك القلوب، لقد ارتفعـت إلى ما بعد الجنة !..حيث الرحمة الندية، والود الخالص، واللذة العميقة.. إنها تقف أمـام

مولاها.. خاشعة، مستكينة، راضية، محبة، حيث لا زمان، ولا مكـان.. حيـث عظمـة الخالق الرحمن.. وقفت لا تريد الانصراف عنه، ولا الانشغال بغيره، ولا الإلتفات إلى ما هو دونه.. سبحانه..

وهكذا، تحققت إنسانية الإنسان، من حيث لا يدري هذا الإنسان..!!

وفي أحد الليالي المظلمة، انطلقت صفارة القطار الحزينة، لتقف في محطـة المـوت، لتنفيذ حكم الإعدام على العصبة المختارة، من حملة شعلة النور.. ووقف الإنسان الألـي لتنفيذ حكم الإعدام في أحدهم.. وأثناء التنفيذ سأله: لماذا أقدمت على ذلك ؟! وكان بوسعك أن تعيش مثل من فى القطار ؟! لماذا خالفت التعليمات ؟!

فأجابه: لأن الله تعالى أغلى من حياتي.

وللأسف، لم يفهم الإنسان الألي مدلول هذه الكلمات، فليس هناك في أجهزته ـ التـي شكلتها القيادة ـ ما يستقبل إيقاعاتها..

تم تنفيذ أحكام الإعدام، ليسطروا أروع انتصارات الإنسانية.. انتصار العقيـدة علـى الألم.. والإيمان على الفتنة، والروح على المادة.

وبينما الإنسانية تولد وتنتصر هنا.. كانت تموت وتنهزم هناك.. في السوق الكبير.

* * *

السـوق الكـبير

تطورت الحياة، وتعمق معها كل شيئ كان في الماضي.. تحول كل شيئ إلـى سـلعة يمكن لأي تاجر ماهر أن يديرها ويربح من ورائها الكثير..

ولأن قيادة القطار، ما هي إلا خادم للقيادة العليا.. كان المدير الفعلي، والرابح الحقيقي هم أفراد اللجنة العليا للقطارات..

تحول " التراث القديم " إلى خادم لأي وضع عليه الناس، وصنعوا له أصـنام بشـرية تمنح صكوك الرضا والسخط، على أي وضع يريدونه !.

تحول " الطعام والجنس " إلى سوق واسعة، تُبذل فيه الأعراض المدنسة، حسب الذوق والرغبة في أي مكان.. فتحول من مهنة عادية، كانت تمارس في الخفاء، إلى التخصص والاحتراف، فصارت تجارة الأجساد من أربح التجارات..

حتى المشكلات.. كل المشكلات، كانت هي الأخرى سلعة، يبيعها الموكلون بحلها، إلى من لا يريد حلها، بل ويعملون على تضخيم المشكلات، حتى تظل تجارتهم قائمة !!

كل شيئ يباع ويشترى.. الثقافة، الشهادات الجامعية، الإعلام، الأفكار.. حتى المشاعر والعواطف لم تسلم من هذا الدنس، أو لم تجد البيئة المناسبة فماتت.

وتحول الإنسان إلى ما هو دون السلعة، إلى ألة بشـرية.. يمـتص عرقـه، ودمـه، وصحته، وأعصابه.. مقابل دراهم معدودة، ويذهب كدح الإنسان إلى هؤلاء التجار.

وتمضي الحياة، والقطار لا يرحم أحداً، فلا يتوقف، فتركيبته أن يظل يسير ويسـير.. وبين كل هذا تمزق الإنسان، وانطمست حيوية الروح فيه، فحق عليه الهلاك.

* * *

إعلان الحرب

بدأت الحياة في القطار تنحدر إلى أسفل بسرعة شديدة، وكالعادة.. في غفلة من ركّاب القطار، استدانت القيادة من لجنة القطارات العليا، لتعويض النقص في القطار..

رصد القمر الصناعي المتطور الذي أطلقته اللجنة العليا حديثاً.. خللاً في أجهزة الرصد والاستشعار الخاصة بالقطار، وضعفاً في أحد جوانبه، وأوشكت الستائر السوداء أن تفقد بريقها المعتم !!

انزعجت القيادة العليا كثيراً من هذا الخلل.. وعلى دائرة مستديرة ضمت كافة أعضاء اللجنة العليا ـ دون أن تكون قيادة القطار بين الحضور ـ وبصوت هادئ، ومن بين الأوراق والتقارير، تحدث مدير اللجنة قائلاً:

" إن لنا مصالح كثيرة في هذا القطار، مصالحنا الآن مهددة، السلع بدأت تفقد بريقها، الديون تثاقلت على من فى القطار، الخيار الوحيد: إعلان الحرب..

رفع الجميع أصابعهم.. بالموافقة ".

استلمت قيادة القطار قرار " إعلان الحرب " بكل أسى وحزن، ونفذت التعليمات كلها:

أوقفت القيادة القطار في محطة مجهولة، لا تحمل أي ملامح أو خدمات.. وفتحت كل البوابات الإلكترونية فجأة، وأرغمت من فى القطار على النزول فيها..

ووضعت أسلحة الجيش والأمن في مكان متصل بالقمر الصناعي؛ حتى يتم تدميرها إلكترونياً..

انتشر الإنسان الآلي في تلك المحطة المجهولة، حول الأسوار العالية، ووقفت القناصة على أسقف المحطة.. لمنع أي محاولة للخروج أو الهروب !

اختفت القيادة في مكان ما، في انتظار التعليمات الجديدة.. وبدأت الحرب..

انطلقت أقراص إلكترونية من أماكن مجهولة على القطار، فتحول إلى كرة من الحديد.. وتدمر كل شيئ فيه..

وقذفت المحطة المجهولة بكرات بيضاء اللون، مزقت أجساد من فى القطار من ركّاب عزل من كل شيئ، حتى معرفة سبب الحرب !

في أعين الناس.. مرّ شريط حياتهم ـ بمتاعه ومشكلاته وعمله الشاق ـ سريعاً، وهم يشاهدون القطار.. القيمة التي عاشوا من أجلها، وهي تذوب أمام أعينهم، ورائحة الـدماء تزكم أنوفهم..

اضطربوا اضطراباً شديداً، وتساءلوا: ما العمل ؟

هل خدعتنا القيادة ؟

أين الجيش ؟ أين العلماء ؟ أين المفكرين ؟ أين الأبطال ؟

تساقط كل شيئ أمامهم.. ولم يعرفوا إلى أين كان سيتجه بهم القطار، كرة الحديد الآن؟

نزل جنود المشاة العسكرية، التابعة للقيادة العليا، يحملون أسلحة مـن كـل الأنـواع، ومطبوع في نفوسهم، أخلاق تتعفف عنها كثير من الوحوش؛ لفحص القطار.. الذي تحول إلى قطع صغيرة، وذلك لنهب أي شيئ يمكن بيعه، وهتك كل عِرض يمكن تناوله.

وفي تلك اللحظة، في تلك اللحظة فقط.. أدرك الذين كانوا فى القطار، أن هناك عـدواً كان يتربص به، وهو الآن يفتك به !

فبدأت المقاومة..

انقسم من فى القطار إلى ثلاث فئات: فئة قررت أن تتبع القيادة في خيانتها، فقـررت التجسس لصالح القيادة العليا، وفئة قررت المقاومة باسم ركّاب القطـار، وفئـة قـررت المقاومة باسم التراث القديم.

ومضت الأيام.. كل يقاوم على طريقته، وتساقط الأبنـاء مثـل أوراق الشـجر فـي الخريف، وانهارت معهم الأمال، وبقيت الألام.. قدّم كل فريق بطولات حسـب درجـات الإيمان.

وبعد تحديد حجم الأرباح والخسائر، فجأة.. تقرر إنهاء الحرب.

* * *

القطار الجديد

في اجتماع عاجل للقيادة العليا تقرر: إعادة بناء القطار مـن جديـد، وتحـديث كـل محطاته.. باللذائذ الجديدة، والمتع الكثيرة، والعروض الفلسفية المتطورة لكافة المشكلات، وتطوير الأدوات الجديدة للعمل الشاق، وتم اختيار قيادة جديدة تلائم هذا الوضع، بعـدما تاهت القيادة القديمة في عالم النسيان !

وفي عدة سنوات في المحطة المجهولة، انتقل أهل القطار القديم إلى القطـار الجديـد، وإلى محطاته المتطورة.. وأخذتهم التغييرات الجديدة الحادثة في شكل القطار..

انطلقت أول صفارة للقطار الجديد، يحمل معه مزيداً من السرعة والمتعة، مزيداً مـن المشكلات والعمل الشاق.. وتم مراعاة التصميم في هذا القطـار، بحيـث يكـون علـى مستويات فائقة من الأمان..

فبعد أن كانت الستائر السوداء من القماش، أصبحت الآن ستائر إلكترونيـة، متصـلة بمجموعة من الأقمار الصناعية المتطورة التابعة للجنة العليا، وبعـد أن كانـت جـدران القطار مصنوعة من الحديد، أصبحت الآن من الفولاذ..

وانتشرت الميكروكاميرات في كل ركن في القطار، بالإضافة إلى أجهزة الاستشـعار عالية الحساسية. وذلك لحماية القيادة الجديدة، وركاب القطار من أي "أذى " !! قد يلحـق بهم في المستقبل المجهول.

وبدلاً من أن يقف ركاب القطار مع أنفسهم، لمراجعة وتقويم حياتهم السابقة، وبدلاً من أن يعرفوا ما هي القيادة الجديدة، ولماذا يقف القطـار فـي محطاتـه هـذه.. والسـؤال المصيري: إلى أين يتجه القطار ؟

بدلاً من هذا كله، شغلهم التطوير الجديد !! بهرتهم المحطات عاليـة التقنيـة.. التـى اشترى فيها القطار كل السلع التي أرسلتها القيادة العليا، وأصبح هناك مفهوم جديد للمتـع واللذائذ، تستخدم فيه التكنولوجيا المتطورة لتزيده جمالاً، فتنشغل به العربة الأولى، وتتطلع باقي العربات إليه..

أما المشكلات فبدلاً من إيجاد الحلول لها، أوجدوا المؤسسـات والجامعـات ومراكـز الأبحاث المتطورة.. ولكن التطوير من أجل العرض الفلسفي حتى ينضج ويصبح فيما بعد سلعة يمكن الإستفادة منها..

وكان للتراث القديم حظاً كبيراً من هذا التطوير، فأنشئت له أجهزة جديدة، تعمل علـى سرعة تكيف التراث مع كل وضع جديد..

أما المحطات، فلقد تطورت فيها وسائل الحماية، فبدل البوابات الإلكترونية القديمة، كان هناك البوابات الضوئية التي تعمل بالبصمة الجينية، والمتصلة بـالقمر الصـناعي، هـذا بالإضافة إلى إنشاء حزام من أشعة الليزر حول كل محطة، ليحترق بهـا مـن يحـاول تجاوزه، كما تطورت كاميرات المراقبة، فهي ترسل صورة حية يوميـاً إلـى الشاشـات العملاقة التي تتابع من خلالها اللجنة العليا، حركة سير القطارات، وأحوال الشعب فيه.

* * *

المنتج البشري

وهكذا مضت الحياة على نفس اللحن الحزين في الحياة السابقة، لم يختلف سوى أدوات العزف.. وبقي العازفون هم االذين يصغون تلك الحياة.. لم تتغير سوى الأدوات والأشياء، وبقي جوهر الإنسان مطموساً داخله..

أصبح ـ سواء كان يملك أولا يملك ـ ذرة تائهة في هذا الوجود، لا يربطها رابـط، ولا تستقر على حال، فتمزقت النفس تحت عجلات القطار..

وتحول بعدها الإنسان إلى ألة تعمل بالريموت كنترول..

يضغط على الزر فيتعصب لفكرة ما، ويضغط على الزر الآخر فيكفر بهـا ! يضـغط على الزر فيتحرك للأمام في حماسة ! أو يقف مكانه في ثبات ! أو يرجع إلى الخلف في خوف وانكسار !

لقد صنعوا لكل من فى القطار، والذى تمزقت إنسانيته تحت عجلاتـه.. صـنعوا لـه طريقة التفكير، ولغة الإحساس، وطريقة استقبال العواطف والإنفعالات..

إنها أشبه بعملية استنساخ إنسان معدل جينياً.. " منتج " يحمل علامة الجودة من القيادة العليا !

وبالرغم من هذا المنتج البشري.. وبالرغم من تعديلات الأمان والحماية.. وبالرغم من جيوش الإنسان الألي..

انبعث النور..!!!

ليعلن أنه يملك قوة في ذاته.. ليعلن عن الميلاد الجديد..

فهل سنعرف هذه المرة، كيف انبعث هذا النور، ومن أين أتى ؟!

فلنكمل الرحلة، حتى نعرف.. !!

حقيقة الميلاد

يتصبب العرق من جبينه، وتتصلب يـداه.. وتسـرع الممرضـة لإحضـار الأدوات اللازمة، بينما تسير في أمي رعشة من الألم.. فتنطلق صرخاتها تحطم تركيـز الطبيـب المسكين..

وبين آلام أمي، وجهد طبيبها، وانتظار أبي وأهلي.. تنطلـق صـرخاتي أنـا، لتفـتح صدري لأول أنفاس الحياة، ولتعلن عن خلف جديد للقطار..

سكنت أمي، وشعرت بلذة الألم بعد مولدي، وأخذ الطبيب نفساً عميقاً، وانصرف ليستعد لحالة ولادة جديدة. وفرح الجميع بالخلف الجديد للقطار..!

مضت الحياة مسرعة، انطلقت من محطة إلى أخرى، وأنا أعيش ألية الحياة ونظامهـا في القطار، أحمل في صدري وبين أحشائي تساؤلاً.. لا أعرفه !..

مرّت السنوات، حتى جاء الشباب، ولم أعرف للحياة مذاقاً بعد..!

ثم تذوقت أول شيئ في حياتي، دون رغبة مني ولا إرادة..

هناك.. بعيداً في أعماق النفس، عاطفة خجولة قوية.. تريد الخروج من خِدرها.. !!

وجدت نفسي تتجه بكل مشاعرها وعواطفها إلى أحد الأشخاص التي تعيش فـي هـذا القطار.. قابلتها صدفة في أحد المحطات التي جمعتنا سوياً، بدأ التعلق بهـا ينمـو شـيئاً فشيئاً، دون أن أدري الحركة الداخلية، والنمو السريع لهذه المشاعر.. لم أكن أعرف مـا الذي يحدث ؟!

نَمت المشاعر وشّبت عن الطوق، وتريد الإصفاح عن مكنوناتها.. وأنا في عجب شديد مما يحدث..

إنني بين لذة هذه المشاعر، وبين آلام الحيرة والتفكير فيها.. إنني أريد التخلص من هذا الألم.. إنني لا أريد التخلص من هذه المشاعر، هذه هي المعادلة الصعبة التي عشتها فـي تلك الفترة من حياتي..

لقد كنت مستريح البال قبل هذه المشاعر، لكنها من الجانب الآخر، جعلتني أتذوق شيئاً جديداً في الحياة، ولكن السعادة ـ التي ينشدها كل إنسان ـ لا يمكن أن تعيش فـي هـذا التناقض والصراع الداخلي.

سألت من حولي: ما هذا الشعور ؟ وهل هم يشعرون بما أشعر به ؟ وكيف أتعامل مع هذه الأحاسيس ؟

فقالوا لي: إنه الحب يا ولدي.. أقبل ولا تخف، إنك من العاشقين..

فأقبلت وأنا خائف، أن تُجرح هذه المشاعر النظيفة التي تحمل الحنين إليهـا، فوجـدت منها النفور والإعراض، وعدم تقدير لمشاعري.. فأصبحت سخرية للجميع، فالعين تفضح هذه الأحاسيس مهما حاول الإنسان إخفائها.

لماذا أتجه إليها بكل هذا الحنين، وهي لا تشعر ؟

يبدو أن هناك سراً غامضاً في هذا الأمر.. لكني أجد نفسي وحيداً، من ناصح أمـين.. يعرف مشكلتي، ويرشدني إلى العلاج ؟

لذا قررت ـ احتراماً لذاتي ـ أن أنصرف بمشاعر الحب هذه، عن من لـم يقـدرها، وظننت أن الأمر سهلاً..

حاولت أن أصرف نفسي عنها، لكنني لم أستطع.. إن هذه المشاعر تتعقد أكثـر، مـع مرور الزمن.. إنني دائم التفكير فيها، وصورتها لا تفارق خيالي.. أجدها بين صـفحات

كتبي.. أغمض عيناي فأجدها داخلهما.. حتى في صلاتي أجدها تقتحمهـا علـيّ.. لقـد أصبحت أسيراً بلا قيد !

فأدركت أنني في مشكلة كبيرة، لم أعرف كل أبعادها بعد..

مر عام ونصف، وأنا لا أعرف من أين أخـرج مـن تلـك المحنـة الصـعبة، ذات الإزدواجية الغريبة !..

فهذه المشاعر تجعلني مهتم بنفسي، وأفجر بعض طاقاتها، وأحب كل من حولي..!

لكنها في الجانب الآخر، تزيد من حرقتي ولوعتي وشقائي.. أي حالة تلك التي تعيشها نفسي ؟!!!

توجهت إلى خالقها، عسى أن أجد عنده العون والإرشاد..

ولكن بأي شيئ أتوجه، وبأي شيئ أدعو ؟!

فدعوت أن يهديني سبيل الرشاد.. وأقبلت عليه، وطرحت عند بابه، عذابي ومعانـاتي وأشواقي..

وفي أحد الليالي.. سكن كل شيئ فيها، إلا كلمات ربي، ودموعي.. ووجدت ما لم أكن أتصوره في حياتي..!!

إنني أشعر بالحرية.. أشعر بالسكينة والطمأنينة..

إنني أشعر بميلاد جديد..

لقد وجدت يداً حنونة طيبة، تمسح على قلبي فتزيل ـ دون أن تترك أثر ـ معانـاتي وتعلقي الذي وجدت نفسي فيه دون رغبة مني.. تُزيل ذاك الذي علق بقلبي، وتضع مكانه محبة وشوقاً إلى من خلقه..

فكان هذا هو زاد رحلتي..

يا الله، لقد عرفت أن الله كرمني.. إنه سبحانه هو من وضع هذا الشوق إليهـا، وهـو سبحانه من أزاله.. ليصنعني لنفسه سبحانه !!

لقد عرفت السر الغامض: لماذا توجهت إليها بالتحديد، وبالطبع كان هنـاك مـن هـو أفضل منها بكثير ؟!

إنها لم تكن شيئاً، سوى أن الله ـ سبحانه ـ جعلها وعاء الاختبار لي.. فلم يكـن لهـا شأن بما يحدث لي.. وبالتأكيد، كان هذا الوعاء يناسب طبيعة نفسي، حتى انجذب إلى هذه الفتاة، ويكون الاختبار على مستواه المطلوب.. على مستوى عال من الصراع والمقاومة فينظر الله تعالى إلى فعلي ومشاعري..

كان الله سبحانه يريد لي أن أُطهر هذه المشاعر مما ألمّ بها، ويجعلها خالصة له تعالى.

لقد كان الأمر اختباراً، وبالرغم من مرور سنوات طوال على هذه الاختبار، إلا أننـي مازالت أتذوق فرحة النجاح فيه، والانتصار على الرغبات والأشواق.. إنهـا الإشـراقة الأولى في حياتي.

لقد وجدت مشاعر أخرى، أجمل وأعمق وأوسع.. إنها تَسع كل الوجود، وتسكب فـي نفسي أجمل الأحاسيس..

إنها النعمة التي لا يهبها إلا الخالق العظيم..

لقد عرفت بالتجربة أن الحياة ـ كل الحياة ـ مجرد " اختبار " لا يختاره الإنسان، ولا يحدد طبيعته، ولا مدته، ولا موعد الخروج منه.. وأن عليه أن يتوجه في كل اختبار، إلى الكريم المنان.. يسأله الرحمة والنجاح في.. اختبارات الحياة.

ومما أكد لي أن ما كنت فيه كان اختبار، أن الله سبحانه حين علم صدق توجهي إليـه، فأزال هذا الشوق من قلبي إليها، لم أتجه إلى هذه الفتاة بمشاعر كره أو انتقام..

لقد امتلأ قلبي بمحبة لا يقدر القلم عليها.. محبة الرب الكريم.. التي تضفي على الحياة رقة وجمالاً، وفرحاً وسروراً، وسعادة وطمأنينة.. كما تفجر في الـنفس كـل طاقاتهـا، وتحقق لها التوازن المطلوب..

فلم أعد أشعر بالتناقض الذي كنت أعيشه من قبل.. فلقد أضاءت هذه المحبة جوانـب نفسي، فأشرق كل شيئ فيها.. فبدت متألقة جميلة، تشعر بالإنسجام والتوافق والتكامـل.. وتشعر باتصالها بالأحياء وبالكون وبالوجود وبخالق كل شيئ..

إنها حقاً الرحمة الندية، والود الخالص.. إنها أجمل إحساس شعره قلب إنسان.

* * *

عشت مع هذه الإشراقة، حتى امتلأ كياني بها، وأصبحت خلقاً جديداً، وعرفت جهل من فى القطار بالحقيقة التي لمست قلبي، ولم يعرفوها..

ومنذ تلك اللحظة بدأت حياتي في القطار، تخرج عن إطارها المألوف، وبدأت تبحـث في كل شيئ..

تمر الحياة ـ في القطار ـ بشكل يعجز الباحث عنها أن يتحقق منها، فالقطار ينطلـق من محطة إلى أخرى، والجميع يلهث خلفه، لا يعرف أحد للسكينة معنـى، ولا للهـدوء طريقاً.. وي كأن القطار يجرنا خلفه بسلاسل من حديد..!!

بعد مرور سنوات، أدركت أمراً ما، ودفعني للبحث عنه، أو ملامسته..

إن هناك شيئ ما بداخلي، لا أدري ما هو ! تمنيت كثيراً أن أعرفـه أو أراه أمـامي، حتى أحتضنه.. حاولت كثيراً التعبير عنه، لكنني لم أستطع، أو عبرت تعبيراً ناقصاً، لـم يحقق لي رؤيته، فحاولت الإستماع إليه..!

فسمعت أجمل الكلمات، وأصدق التعبيرات، وألطف النسمات.. حتى فاضـت عينـاي بالدموع..

حاولت كتابة شيئ من حديثها المهموس، فلم يستطع قلمي أن يكتب حرفاً واحداً.. حتى ظل الأمر سراً بيني وبين نفسي..

كان هذا الشيئ يدفعني كثيراً إلى التأمل والتفكر، دون رغبة أو إرادة مني، كان يفرض نفسه عليّ، وكنت استجيب إليه.. كان يأخذني معه في رحلات ممتعة عميقة مثيرة، حتـى إذا رجعت اصطدمت بالحياة في القطار من جديد..

كان هذا الشيئ يحاول أن يكسر آلية الحياة المستسلم لها، ويضـفي حيويـة أخـرى، وانطلاقة فسيحة في صفحة هذا الكون.. حقاً، لقد تغيرت مشاعري وحياتي بعد الاختبـار الصعب.. " اختبار المشاعرالإنسانية ".

قرأت كثيراً، حتى أعرف ما هي حقيقة هذا الشعور، وجدت ذلك الشعور، أشبه بـرحم الأم، لكن ولادته كثيرة ومتنوعة، وتحمل الكثير من المفاجأت.. يبدو أنها بعض من ملامح النفس الإنسانية !..

ثم توصلت إلى أقرب صورة عن هذا الشعور، وهو أنه نقطة الإرتكاز داخل الإنسان.. التي تحاول تعديل مركزه في الوجود؛ حتى يحقق التوازن المطلوب، فيصبح إنساناً يحمل خصائص الإنسان، فقررت أن أفسح المجال لهذا الشعور، وألا أكبتـه.. وتركتـه ينمـو بحرية، عن رضى وإيمان به..

فماذا كانت النتيجة ؟

* * *

طريق الحرية

لم أكن أعلم تكاليف هذه الحرية، التي أعطيتها لذلك الشعور أو الإيمان الداخلي.. كنت أظن أن الأمر مجرد رحلات ممتعة أغوص فيها في أعماق نفسي، فاكتشـف مكنوناتهـا وخلجاتها، فأعيش لذة الاستكشاف، ومتعة الرحلة العمقية الأغوار..

ولكني عرفت ـ بعد فترة من العمر ـ أن لهذه الحرية مقتضيات وتكاليف !

وبدأت رحلة الوصول إلى الحرية، في هذا القطار..

كانت أول محطة في تلك الرحلة المعلومة الهدف، المجهولة التكـاليف، هـي حريـة الشعور والفكر اللاذان أطلقت لهما العنان، كي يسبحا في هذا العالم الذي أعيشه.. ومعهما بدأت المحطة الثانية، وهي حرية التأمل والتدبر..

كانت محطات صنعتها لنفسي، لم يكن للقطار أن يتوقف فيها، فهي ليست من طريـق رحلته..!

كان التأمل والتدبر بطبيعة الحياة التي أعيشها داخل القطار، يتجهان إلى طريقة الحيـاة داخله، وكيفية تصميمها على هذا النحو.. كنت أسأل نفسي: إلى أين يتجه هذا القطـار ؟ وما هي محطته النهائية ؟ وما هو الغرض أصلاً من القطار والمحطات والرحلة ذاتها؟!!

كانت هذه الأسئلة تؤرق تفكيري، وتجعلني مضطرباً، وغير مهتم بالحياة في القطـار، فالبرغم من أنه السؤال المصيري في هذا القطار، فكنت لا أجد له جواباً.. سوى تبريـر يسمونه " سنة الحياة "..

حاولت أن أفهم لماذا أنا مهتم كثيراً بهذا السؤال، وهل سأله أحد قبلـي، وهـل وجـد جواباً؟!

ففهمت ـ فيما بعد ـ أن عزوف الناس عن الاهتمام بهذا السؤال، يرجع إلى أن حياتهم تُستهلك أثناء الرحلة، وفي الوقوف في المحطات فتنتهي قبل وصـول القطـار محطتـه النهائية، وتصبح المحطة النهائية لكل فرد ـ في القطار ـ على حـده .. هـي محطـة الموت.

تركت هذه الأسئلة، وبقيت لهفة البحث عن الإجابة تثور في داخلي بين الحين والآخر..

ثم واجهتني أسئلة أخرى:

لماذا القطار بلا نوافذ ؟ لماذا هذه الستائر السوداء ؟ لم كل هذه الحماية على المحطات؟

وفي هذه المرة، قررت أن أسأل أكبر عدد ممكن ممن فى القطار.. فكيف أسـتطيع أن أكمل الحياة في هذا القطار، بلا إجابة على تلك الأسئلة ؟!

وسألت، فلم أجد إجابة سوى تبرير آخر يسمونه " الأمر الواقع " وفي زحمـة الحيـاة، وداخل الحلقات المفرغة من القطار، ضاعت رغبتي في الإجابـة الحقيقيـة.. ورضـيت بالصورة المزيفة، والحقيقة الكاذبة للإجابات؛ التي استهلكت رغبتي في الإجابة !.

فلم أجد نفسي، وجدت الحزن يقتحم على حياتي، وبالحيرة تسرق النوم مـن عينـي.. ووقع الخصام والافتراق بين مكونات نفسي، حتى وقعت المعركة بين " الشـعور الـذي دفعني إلى حرية التأمل والتدبر " وبين " الفشل في تحقيق مقتضيات هذا الشعور "..!!

ودارت المعركة، تارة يغلب الشعور، وتارة ينتصر الفشل.. وكان الحكـم فـي تلـك المعركة هو عقلي..

مرة ينتصر العقل لشعور الحرية، فيقول: لقد كان هذا الشعور يسكب فينـا أحاسـيس وتصورات عظيمة.. كنا نشعر بقيمتنا وبذاتنا.. كنا نشعر بالحب يفيض من كل جوانبنـا، وتشرق في كياننا شمس الحكمة.. كنا نشعر بدورنا الحقيقي في هذه الحياة.

ومرة ينتصر العقل للفشل في تكاليف الحرية، فيقول: إننا بحثنا ولم نجـد إجابـة، ولا يمكن أن تمضي حياتنا بلا طريق أو حركة، ولنا في السابقين قدوة ومنهاجاً !.

وبين هذا الصراع، ضاعت ابتسامة نفسي، ووقفت حزينة باكية علـى هـذه الفرقـة والاختلاف، وشعورها بالتيه والضياع.. فسقطت وسط هذه المعركة، فحزن الجميع لحزن نفسي، وقرر كل طرف أن ينسحب، مع تمسك كل جهة بحجتهـا وموقفهـا.. ووضـعت الحرب أوزارها دون أن ينتصر أحد..!!

مضت الحياة بنفس آليتها،

وبعد فترة.. انتهت الهدنة، وعاد الصراع من جديد، وانفجر بركان الرغبة في الإجابة على أسئلتي..

وفي أحد المحطات، قابلت شيخاً كبيراً، انحنى ظهره، وأبيض شعره، وسكنت حركته.. يبدو عليه الوقار.. فسألته: هل تعرف إجابة لأسئلتي ؟ فانتبه إليّ قائلاً: لقد سـألت عـن عظيم، وقلة هي التي تسأل.. أشفق عليك من تكاليف الإجابـة.. إنـك اختـرت طريـق الأحرار.. فابحث عن رفقاء الدرب ".. ثم مضى، ولم أره ثانية..!

هزتني كلماته المختصرة الغريبة.. لماذا يبدو كل شيئ في هذا القطار يحمل نوعاً مـن الغموض ؟!

أحسست من صوت كلامه، ومختصر عبارته، بالحكمة والصدق.. وتوقفت عند كلمتي " طريق الأحرار ـ رفقاء الدرب "

إذا كان هناك طريقاً للإحرار.. فإلى أي طريق نحن نسير.. أيكون طريق العبيد ؟!!

اتضحت لي الصورة شيئاً فشيئاً، فكل يوم يمر عليّ يكشف جزءاً من خبايهـا، ويـدفع عنها الركام الذي يغشاها..!

اختلت حياتي في القطار.. إن الإشراقة الداخلية التي حدثت بعد أن نجحت في " اختبار المشاعر الإنسانية " وما تبعها من حرية في التأمل والتدبر، يعاكسان تماماً نظام الحياة في القطار.. الذي يمنع بتصميمه الخارجي، وبنيته الداخلية أي مصدر للنور..

وعرفت من هذا التناقض الإجابة على بعض أسئلتي..

لقد كانت مفاجأة بالنسبة لي أن أعرف أن القطار ذو ستائر سوداء، وبلا نوافذ.. مـن أجل أن يحجب النور عن الناس، ويمنعهم من رؤية الحياة على حقيقتها ! وليس من أجـل حمايتهم كما يزعمون ! إلا إذا كانت هذه الحماية هي الحماية من الحرية !

لمصلحة من ؟ من يمنع النور عن الناس..

سرق هذا السؤال، فرحتي بمعرفة إجابتي لأحد الأسئلة.. وبقي هذا السؤال معلقاً، لحين الاصطدام بأحد التجارب الحياتية..

وبعد خدعة الحياة في هذا القطار، وإحساسي بأننا نسير في طريـق معـوج، بقيـادة مجهولة، بتاريخ مبتور.. أعلنت نفسي ثورة داخلية.. دفعتني إلى التيقن من كل شيئ فـي هذا القطار، بدأ من القيادة مروراً بنظام الحياة فيه.. إلى الطريق الذي تأخذنا إليه..

كما أشعلت تلك الثورة شغفي في البحث عن طريق الأحرار، والتخلي عـن أي شـيئ يعوق عملية البحث، وتحطيم أي عقبة تقف أمام هذه الرغبة الجامحة..

وبهذا توقفت آلية الحياة عندي.. وبدأ عهد جديد.. عهد البحث عن الطريق.

محطة الأصنام البشرية ؟

كان عليّ كي أصل إلى الطريق، أن أفلت من شِراك وأفخاخ السامري.. إن لـه مـن البلاغة والقدرة على الإقناع، والمراوغة.. ما يسحر به عقول الجميع.. !

كان السامري مخترع العجل ـ المنسق العام التابع للقيادة ـ يتولى مسؤولية تصـنيع عقول من فى القطار كافة.. كانت المحطة التي يتولى إشـرافها هـي محطـة " توجيـه العواطف، وإخضاع الإرادات " وهي لكل العربات.. وفيها تتم عملية التفريغ والشـحن.. تفريغ المشاعر والعواطف الإنسانية، وشحن أفكار وتصورات أخرى تلائم الحيـاة فـي القطار.. !

كانت مهمة صعبة ودقيقة.. تتم بعناية بالغة، والقائمون عليها يفضـلون العمـل فـي صمت، وتنفيذ الأوامر في هدوء..

كان هناك محطة أخرى تابعة لقيادة السامري، هي " محطة الأصنام البشرية " وهي من المحطات التي تحمل أهمية قصوى.. كان هذا اسمها الحقيقي الغير معلـن.. كانـت لهـا تسميات أخرى حسب مستوى ثقافة من فى القطار !

كانت هذه المحطة صمام أمان بالنسبة للقطار، وللحياة فيه..

كان البعض يحاول في براءة، إيقاظ بعض الأفكار من ثباتها العميق.. وإخراجها مـن قبورها، دون أن يدري خطورة ما يفعله..

هذه الأفعال، كانت تزعج القيادة، فاقترح السامري أن يتولى هو أمرها..

وحقاً.. لقد كان ماهراً في عمله وسريعاً في حركته، كان يصنع لكل فكرة خرجت إلى النور، " صنماً " ـ في الغالب ـ بشرياً " ويبرز فيه بعض المحاسن والعيوب، ثـم يـدعو

الناس إليه.. فتعبد بعض الناس المحاسن، ويكفر البعض الآخر للعيوب، ولا يلتفـت أحـد إلى الفكرة التي يخفيها الصنم.. فلا يدري أحد ما الفرق بين الفكرة والصنم !

العجيب.. أن هذه المحطة كان يتوقف عندها الكثيـرون، وتسـتهلك مـنهم الأوقـات والأموال والأعمار.. فهناك من يقدم القرابين.. وهناك من يهاجم الصنم، بينما هـو فـي الحالتين واقف لا يتحرك، ولا ينطق، ولا يملك لنفسه شيئاً.. !

كان السامري على وعي بالنفوس من حوله، فكان يصنع الصنم المناسب فـي المكـان الصحيح.. فلا يفلت من شراكه أحد !!.

* * *

أين الطريق ؟

منّ الله ـ سبحانه ـ عليّ باكتشاف المحطات الخفية التي صنعها السامري، فعرفـت سماتها وأفخاخها، وبدأت البحث عن الطريق من البداية الحقيقية للبحث " اقرأ "..

ليالي طويلة تمر وأنا عاكف على الكتب، وأيام عديدة تنقضي وأنا أسأل في كل شيئ.. تحولت الأيام إلى شهور، والشهور انتهت إلى سنوات.. ولم تنقص رغبتي في البحث، بل ازدادت مع كل جديد أعرفه.

وبعد أن أوشكت على الإنتقال من نقطة البداية " اقرأ " إلى النقطة التي تليها.. اكتشفت أكبر صدمة لي في هذا القطار !!!

بعد أن تحسست معالم الطريق، من خلال ما تعلمت.. اكتشفت الفاجعة ! إن هناك مـن كان قبلي، قرأ ما قرأت، وتعلم ما تعلمت.. لكنه لم يبصر الطريق، ولم يكن يبحث عنه !!

لم قرأ ؟ ولم لم يبصر الطريق ؟ تفضلت نفسي بطرح هذه الأسئلة اللطيفة، في هـول المفاجأة..

فتوقفت حتى أعرف الإجابة...

حتى أدركت أنه أقيمت سوق " للعلم " فتحول إلى سلعة في أيدي قطاع الطرق.. فصار مكتبات، وجامعات، وأحزاب، تحمل جزءاً من العلم، أو النور.. وتمضي به بعيداً، حتـى يفقد بريقه، وتذهب فاعليته..

لمصلحة من ؟

لست أدري.. !!

شعرت بالعداء الشديد تجاه قطاع الطرق.. فلقد أحسست أنهم سرقوا صدق رغبتي في البحث عن الطريق، وأضاعوا مشاعرها وملامحها.. بين الأشياء المزيفة التي صنعوها.

وعرفت أنه طالما قطاع الطريق، واقفون عند نقطة البدء " اقرأ " فلابد أن يكون هناك قطاع للطريق عن النقاط التالية..

تماسكت أمام هذا التحدي الصعب، وتيقنت أن قطاع الطريق يحجبون طريقاً يملئه الخير والنور.. وعليّ أن أصمد أمام تكاليف الرحلة.

توجهت إلى خالق النور، وطلبت منه أن يجعل لي نوراً يهديني سبيل الرشاد.

وبعد أن تكونت لي خبرة في عالم الكتب، ومعرفة بقطاع الطرق.. لم أعد ألتفت إلى ما هو مشهور، أو يحمل بريقاً أو تلميعاً زائد عن الحد، فهذه خدعة اللصوص وأفخاخهم.

إن النورالذي أبحث عنه يحمل قوة في ذاته.. عرفت هذه الحقيقة عندما قام أحد قطاع الطريق - بعد أن أصبحوا هيئات ومؤسسات، تمولها القيادة - بتشويه أحد الأفكار، ومهاجمة أصاحبها.. !!

فقلت في نفسي: لم تكون أسير هؤلاء اللصوص ؟ إن لك عقلاً .. فتدبر به حقيقة ما يقولون، علهم كاذبون..

فقرأت.. فشعرت بأمر غريب، أجهد عقلي كثيراً، هناك ضبابية شديدة حول بعض العبارات.. مثلها مثل الورود الجميلة في صندوق القمامة.. !!

فما هي ملامح الوردة الجميلة ؟ ومن وضع حولها صندوق القمامة ؟

كان السؤال الأخير سهلاً.. فبالتأكيد هم قطاع الطريق، وبقي الأول: أين الوردة الجميلة، وهل لها أخوات ؟

كان هذا هو المعروف الذي صنعه لي اللصوص، من حيث لم يحتسبوا.. لقد أرشدوني إلى اتجاه البحث..

وجدت صعوبة بالغة في البحث عن الورود الطبيعية، ذات الجمال الحـي، والرائحـة الذكية.. بينما الورود الاصطناعية، ذات الجمال المزيف والرائحة النتنة، تملأ المكان.. !!

وأخيراً: وقع في يدي وريقات قديمة، تحكي أنه كان هناك دعاة إلى طريـق النـور، ولمخالفتهم لقوانين القطار؛ تم إعدامهم..

انتفض قلبي، وأنا أقرأ هذه النسمات.. لقد وجدت رفقاء الدرب.. وجدت أهلـي.. لقـد وجدت طريقي..

تتبعت مصدر الوريقات.. حتى وقعت على كنز عظيم، قرأت منـه أجمـل مـا رأت عيني.. ففيه كل ما أبحث عنه..

كلمات كتبت بمداد الروح، وبنبض القلب.. ورويت بالدماء؛ حتى وصلت إليّ.. حقـاً إنها تستحق التشريف والرعاية.

وأحق صيانة لها، هو جعلها واقعاً حياً يمشي بين الناس، ولئن مات رفقاء الدرب قبـل أن يقيموا مملكتهم، فأولى لي وللرفقاء الجدد، أن يقيموا تلك المملكة..

ولكن كيف ؟ والحياة تنمو في القطار نمواً آلياً تحت إشراف القيادة.. كما أنه لا يوجـد مقومات للحياة الطبيعية فيه ؟..

تفضل عقلي مشكوراً بتذكيري بهذه الحقيقة المؤلمة..

نشطت الحركة الداخلية والخارجية في نفسي، وطفقت تلملم ذراتهـا المتنـاثرة بـين الصحيح والمزيف من الحياة ! وتجمع خلاصة التجارب السابقة، وتستنهض كل ذرة كامنة فيها..

استعداداً للرحيل !.

* * *

الرحيل

ماذا قلت:

الرحيل..

سألني عقلي.. من أين ؟ وإلى أين ؟ وكيف ؟ ومتى ؟ وباقي حروف الإستفهام..

ظننت ببساطة أن هذا هو رد الفعل الطبيعي على ما توصلت إليه من حقائق.. ولكنني لم أكن أعرف أن قرار الرحيل، يختلف تماماً عن المضي فيه.. ولهذا استوقفني عقلي..

وإذا بطبول الحرب أسمع ضرباتها من بعيد، لتعلن هذه المرة عن حرب مصيرية، بين مكونات نفسي.. بعد هذا الوضع الجديد..

وقف الجميع في موقف مهيب.. قلقين، متوجسين، خائفين من مصير تلك الحرب..

رفع كل فريق أسلحته في وجه الآخر..

العقل: الطريق مليء بالدماء.. الخطر يحوم حولنا.. إننا نحطم قوانين القطار.. إلى أين سنرحل ؟ وكيف سنرحل ؟ ولا يوجد منفذ للخروج، لا من القطار، ولا من المحطـات.. ومات رفقاء الطريق قبل خروجهم، فليس معك دليل الخروج ؟!

الروح: إنه طريق النور.

العقل: إنك تحطم حياتك في القطار.. أتترك أهلك، ومجتمعك، ومكانتك.. مـن أجـل طريق شاق.. طويل.. صعب !

الروح: إنه أقصر طريق.. للنجاة.

وبينما هذه المعركة دائرة.. تدخّل القلب، ليبين لهم الجديد الذي توصل إليه..

إلى كل نفسي..

أحبكِ، وأقدر كفاحكِ..

بعد كل ما توصلنا إليه جميعاً من علوم، وتجارب.. وبعد كل هذه السنوات من البحث.. لقد عرفت القيادة، وعرفت كذلك المحطة النهائية لتلك الرحلة.

سكنت الحرب الضارية، للإستماع إلى الإجابة التي أجهد الجميع البحث عنها.

إن هناك خدعة.. لم ينتبه أحد إلى هذه الكلمة، لأن نفسي اعتادت رؤية الخداع والتزيف..

إنها خدعة لا يمكن لأحد أن يصدقها..

" لا يوجد محطة نهائية للقطار "..

القطار يسير في دائرة مغلقة، ليس لها بداية ولا نهاية.. القطار لا يسير في طريق مستقيم.. الناس على نفس موجات القطار.. الحركة الدائرية المغلقة المفرغة للقطار في الخارج، انتقلت إلى نفوس الناس في الداخل.. الناس في داخلها، تعيش نفس الحلقات التي تُساق فيها..

لم يصدق أحد من مكونات نفسي هذا الخبر..

فإلى أين يسير القطار ؟ ولماذا يسير ؟ ولماذا يخدع الناس ؟

قال القلب: حان الآن أن تعرفوا كل الإجابات الحقيقية، عن الأسئلة التي تفجرت تلقائياً أثناء رحلتكم في القطار.

تذكروا معي الأسئلة:

لماذا القطار بلا نوافذ، و ذو ستائر سوداء ؟

لماذا قيادة القطار، تتبع قيادة أخرى ؟

لماذا تحجب عن الناس النور ؟

لمصلحة من هذا ؟

من الذي اختار الحلقة الدائرية للقطار ومحطاته ؟

أيتها النفس: إن صدق توجهكِ، هو الذي قادني إلى تلك الحقيقة التي أتلوها الآن..

قالت القيادة ـ لما قضي الأمر ـ : " إن الله وعدكم وعد الحق، ووعدناكم فأخلفنـاكم، وما كان لنا عليكم من سلطان.. إلا أن دعوناكم فاستجبتم لنـا، فـلا تلومونـا، ولومـوا أنفسكم.. ما نحن بمنقِذيكم، وما أنتم بمنقِذينا "..

صرخت القيادة بتلك الكلمات، في المحطة النهائية الحقيقية ـ بعدما تحطمـت الـدائرة المغلقة ـ في " النار "..

لقد كان القائد الحقيقي هو " الشيطان "..

إن القطار من صنع الشيطان، وكل قيادته ولجنته العليا هم أولياؤه..

أرادوا أن يعبد الإنسان الشيطان من دون الله.. حتى ينالوا جميعاً غضـب الـرحمن، ويشقوا بالحياة في القطار وفي النيران..

إنها معركة مصيرية بين " الإنسان والشيطان "..

لم يصمد أحد أمام هذه الحقيقة: انهارت نفسي، واختل عقلي، واضـطربت روحـي.. وساد صمت عميق.

ثم تفجرت أسئلة من نوع جديد..

لماذا قَبِل الناس تلك الحياة في القطار ؟ لماذا كانوا أسرى للحياة فيه ؟ لماذا تحولوا إلى عبيد يخدمون عدوهم ؟ لماذا لم يسمحوا للنور أن يضئ قلوبهم ؟ لماذا دمروا مصابيحهم، وحبسوها في سجن صغير ؟ لماذا لم يبحثوا عن الطريق ؟ لماذا لم يبصروه ؟

أجاب قلبي: لقد دخل إليهم الشيطان من طريق أهوائهم، وما يشتهون، فاستجابوا لـه.. فهلك وأهلكهم.

بعد هذا البيان، لم يقو أحد على الحرب، وصار الحال ينذر بحالة ولادة طبيعية.. !

وفي أحد الليالي المظلمة، قررت المصالحة مع نفسي، والوقـوف متلاحمـين، لتنفيـذ الخطة..

تم تحليل نظام الحياة في القطار، وتبين من التجارب السابقة، أن المحطـات لا يمكـن اختراق حمايتها..

إذاً القفز من القطار وهو يسير، هذا " طريق الحرية "..

تم الإعداد للخطة:

الإنسحاب التدريجي من الحياة في القطار.. الإبتعاد عن أجهزة الرصـد والمتابعـة.. تعطيل أحد أبواب القطار، عند الاقتراب من المحطات.. القفز من القطـار، قبـل إعـادة تشغيلها من جديد.

* * *

لحظات الميلاد

من بين زحمة الإحشاء.. وأنين الأهات، ومن بين صوت الصرخات.. وعلو الضحكات، ومن بين كيد المؤمرات.. وعقد الصفقات، ومن بين غباء القيادة.. وطبيعة الخيانة، ومن بين التيه في الظلام.. ومن خلف الركام، ومن بين القطيع البشري.. وأثناء ضجيج القطار، وغبار التراب، والحركات المسرعات..

قفزت من القطار..

فكان الميلاد..

ألم يملأ كياني.. ووحشة تغمر حياتي.. وحيرة تأخذ فؤادي.. وعبرات تفيض من وجداني.. وجبل جاسم على قلبي يعذبني ويشقيني.. ، وملائكة في السموات تدعو بالتثبيت والإكرام، ورب عظيم ناظر إليّ يمد يده بالإحسان..

وكلمات ربي تتلى في سكون الليل ما بين خشية ورجاء.. وواقف أمام مولاي أسكب العبرات، عسى أن يرحمني ويرضاني..

وإذا بالملائكة تنهض في همة ونشاط، لنزع الجبل الجاسم على قلبي.. فأشعر بالألم من كل مكاني، وبالصرخات تملأ وجداني.. فما أصعب لحظات الميلاد ؟

فيفرح الرب الكريم، لميلاد الإنسان..

حتى شعرت بالإصطدام على صخرة الحياة الحقيقية.. فتحسستها ولمستها، فشعت فيّ حرارتها وطبيعتها، فتألمت من جديتها، وأخذتني روعتها..

وإذا بالنور الساطع، يغمر بأضوائه الملكوت، فينشرح صدري لجمال الوجود، ولطبيعة الخلود، وتملأ كياني روعة الحياة، وعظمة الرب الرحيم الودود..

فأدركت النسب العريق الممتد في شعاب الزمان، وبالحياة الجديدة في كنف الرحمن..

فكان ذلك الميلاد الجديد..

الذي لا بد له من مخاض، ولا بد للمخاض من آلام، ولا بد للآلام من نهاية.. ولا بد للنهاية من جزاء..

وكانت هذه البداية..

بداية الحياة خارج القطار.

اللهم لك الحمد ولك الشكر

أحمد طه